

ثمة عوامل جعلت من المفكِّر الكبير عالم الاجتماع عبد الرحمن بن خلون(1332 - 1406 م) – رحمه الله – فيلسوفاً وعالماً اجتماعياً وسياسياً خبيراً في شؤون الدولة والمجتمع، فكان كثير المصادر متنوعة الثقافات والمعارف، إذ شهدَ عصرُ ابن خلون صراعات اجتماعية وسياسية كثيرة، ولا سيما بعد نهاية الحروب الصليبية وما تلاها من صراعاتٍ حضاريةٍ وتناقضاتٍ فكريةٍ وعَقْدِيَّةٍ عميقةٍ بين المجتمع العربي الإسلامي والمجتمعات المعادية للإسلام، فتفاقمت الصراعات الاجتماعية، وأدى ذلك إلى ظهور قوى وإماراتٍ دوبياتٍ عربيةٍ صغيرةٍ، تتصارع على التفозд والسلطة في ظل تلك الكيانات السياسية الهزلية[1]. وشكّلت تلك العوامل الخاصة والعامّة فكراً اجتماعياً وسياسياً مميّزاً لابن خلون عن غيره من المفكّرين العرب والمسلمين الذين عاصروه، واتّجاهها مختلفاً ورؤيا سياسية واجتماعية واقتصادية فيما أسماه "العمران البشري"، (لا كوتست) يُعدُّ مقدمة ابن خلون "حدثاً معرفياً بل معجزةً عربيةً، تحدّث عن أثر ابن خلون وإسهاماته في الفكر الحادثي، وتتناول مقدّمه تحليلًا وفكيراً وتجميلاً وتركيباً، حتى غدت أفكارهُ نموذجاً بارزاً ومثالاً حيّاً للمفكّرين العرب والمسلمين والأوربيين على اختلاف توجهاتهم الإيديولوجية واهتماماتهم المعرفية. فأكثر ما اهتمَ به المعاصرُون مشكلة التنظيم السياسي للمجتمع العربي والإسلامي، والعلاقة مع الآخر ولا سيما العلاقة بالغرب، وعبر عنها برؤية تاريخية تراكمية بعد أن عاصر تلك المشكلات في تنقّل الطويل وعمله في بلدان مختلفة. فضلاً عن الوضع الاقتصادي المتدرّي الذي عاشه مجتمعه آنذاك بعد خروج العرب من الأندلس وفقدان مراكز التجارة البرية والبحرية التي سيطرَ عليها الأوربيون بعد انتزاعها من العرب، فتحوّل العرب إلى الاعتماد الكامل على الزراعة، فدفعَت تلك الظروف مجتمعةً ابنَ خلون إلى أن يصبَّ اهتمامه كلهُ في مقدّمته على نشأة المجتمع وتقديمه وانهياره والقوانين التاريخية التي تحكم المسيرة المجتمعية ومظاهر التحوّل وعملية التغيير الإنساني والتبدل الحضاري[2]. كان الفكر السياسي عند المفكّرين العرب والمسلمين مُربطاً بالمثل على حين كان لابن خلون وجهة نظرٍ واسعةً وطريقةً عميقةً في التفكير والتحليل؛ وبإدراكه لهذا المبدأ الذي انطلق منه ابن خلون يُمكننا الاقتراب من السياق الفكري لأهم النظريات التي وضعها في علم الاجتماع السياسي في الدولة وحكم العائلة وظهور الحضارات والدول وسقوطها وانتقالها من أطوارِ التأسيس إلى أطوارِ القوّة والبناء ثم الضعف والانهيار، وكان لهذا المبدأ الأثرُ الأبرزُ في فكر ابن خلون الاجتماعي والسياسي، فقادهُ هذا الرفض مباشرةً إلى رفض الإسهام الفلسفـي الذي كان يحتاج الفكر السياسي ولا سيما عند المفكـرين في العالم الإسلامي آنذاك. وبهذا الانطلاق منْ (الواقع) لا منْ (المثل) أصبحَ ابن خلون رائداً للتيار الواقعـي الذي نسبَ إلى مفكـري النهضة الغربية الأورـبية، وظهرَ هذا الاتجـاه الواقعـي عندَ ابن خلون في نقدِه وتحليله للمجتمع العربي وتفسيره التطورـ الحضاري الذي يعني بتغيـر المصالح التي تؤثـر فيها عوامل الزـمن والانتقال من طورـ البداوة إلى طورـ التـحضر، لأنـ (العصـبية) عند ابن خلون مفهـومٌ رئـيسيٌ؛ فهي عنـه دالةً اجتماعية، واعتمـد ابن خلون المنهـج التجـريـبيـ، هو: إلى أيـ مدى أثرـ العـلمـة ابن خـلونـ فيـ الفـكـرـ السـيـاسـيـ وـالـاجـتمـاعـيـ المـاعـصـرـ؟ • كـيفـ أـثـرـ الـواـقـعـ؟ الـاجـتمـاعـيـ وـالـسـيـاسـيـ فيـ أـفـكـارـ ابنـ خـلونـ وـطـرـوـحـاتـ الـاجـتمـاعـيـ؟ • كـيفـ رـبـطـ ابنـ خـلونـ الـعـصـبـيـةـ بـالـدـينـ وـبـنـاءـ الدـولـةـ؟ • ما مـدىـ تـأـثـيرـ الطـرـوـحـاتـ الـخـلـونـيـةـ فـيـ الـوـاقـعـ الـعـرـبـيـ وـالـإـسـلـامـيـ الـمـاعـصـرـ؟ • ما مـلامـعـ التـأـثـيرـ الـخـلـونـيـ فـيـ رـوـىـ المـفـكـرـينـ الـغـرـبـيـينـ الـمـاعـصـرـينـ وـأـفـكـارـهـ؟ أوـلـاـ: تـأـثـيرـ السـيـاقـ التـارـيـخيـ وـالـاجـتمـاعـيـ الـعـرـبـيـ وـالـإـسـلـامـيـ فـيـ فـكـرـ ابنـ خـلونـ؟ أيـ: فـيـ المـرـحلـةـ التـارـيـخـيـةـ الـمـرـتبـطـةـ بـالـتـرـاجـعـ الـإـسـلـامـيـ وـأـطـوارـ الـضـعـفـ الـأـنـدـلـسـيـ، فـكـانـ لـهـذـهـ الـمـرـحلـةـ وـأـحـدـاثـهـ وـظـرـوفـهـ السـيـاسـيـةـ وـمـلامـحـهـ الـاجـتمـاعـيـةـ الـعـامـةـ أـثـرـ بـالـغـ فيـ تـكـوـينـ فـكـرـ ابنـ خـلونـ وـمـصـادـرـهـ الـمـعـرـفـيـةـ وـرـوـاهـ الـفـلـسـفـيـةـ؛ وـلـمـ يـكـنـ فـكـرـهـ مـرـبـطـاـ بـالـدـولـةـ الـعـبـاسـيـةـ، وـمـاـ مـرـتـ بـهـ مـنـ أـطـوارـ مـخـلـفةـ مـنـ طـوـرـ الـبـدـايـاتـ إـلـىـ طـوـرـ انـهـيـارـهـ وـسـقـوـطـهـ عـلـىـ أـيـديـ الـغـزـاةـ الـمـغـولـ وـزـوـالـ آـثـارـهـ الـتـقـافـيـةـ وـالـسـيـاسـيـةـ وـالـاجـتمـاعـيـةـ. هوـ (ـالـعـامـلـ الـعـالـيـ)؛ وـكـانـ لـهـ دـورـ فـيـ تـارـيخـ الـأـنـدـلـسـ اـمـتدـ لـخـمـسـةـ قـرـونـ، وـمـمـاـ زـادـ فـيـ إـضـعـافـ تـلـكـ الـدـوـبـيـاتـ ماـ كـانـتـ تـتـعرـضـ لـهـ مـنـ الضـغـطـ الـأـورـوبـيـ وـهـجـمـاتـ الـبـرـبـرـ وـالـبـدـوـ[8]ـ. وـمـنـهـ الـطـاعـونـ الـذـيـ كـانـ جـائـحةـ خـطـيرـةـ اـنـتـشـرـتـ فـيـ الـمـغـرـبـ الـعـرـبـيـ حـتـىـ وـصـلـتـ إـلـىـ تـونـسـ، وـثـمـةـ عـامـ آخرـ، يـمـكـنـ أـنـ نـسـمـيـهـ (ـالـعـامـلـ الشـخـصـيـ)ـ الـذـيـ أـثـرـ تـجـربـةـ ابنـ خـلونـ وـعـقـلـيـتـهـ وـكـتابـاتـهـ، فـمـكـانـةـ الـأـسـرـةـ وـمـسـتـوـاـهـ الـاجـتمـاعـيـ أـتـاحـاـ لـهـ فـرـصـةـ تـلـقـيـ تعـلـيمـ رـفـيعـ الـمـسـتـوـىـ، ثـمـ لـمـ بـلـغـ سـنـ الـعـشـرـينـ عـمـلـ كـاتـباـ فـيـ سـلـكـ الـقـضـاءـ فـيـ دـوـلـةـ الـحـفـصـيـيـنـ بـتـونـسـ، وـدـفـعـ ضـرـبـةـ ذـلـكـ التـقـلـبـ فـيـ الـوـاءـاتـ، فـزـجـ بـهـ فـيـ السـجـنـ مـرـتـيـنـ بـاـتـهـامـاتـ الـانـقلـابـ عـلـىـ الـحـكـامـ أـوـ الـتـآـمـرـ عـلـيـهـمـ وـالـكـيدـ لـهـمـ. وـرـفـدـتـهـ بـتـجـارـبـ غـنـيـةـ، حـتـىـ غـدـاـ بـحـقـ رـائـدـ الـفـكـرـ الـوـاقـعـيـ الـذـيـ اـتـضـحـتـ مـعـالـمـهـ فـيـ عـصـرـ الـنـهـضـةـ عـلـىـ يـدـ (ـنيـكـولاـ مـكـيـافـلـيـ)[9]ـ. حـسـبـ رـأـيـهـ[10]ـ. ثـانـيـاـ: عـلـاقـةـ الـدـيـنـ وـالـوـلـاـتـ فـيـ فـكـرـ ابنـ خـلونـ: نـادـيـ ابنـ خـلونـ بـأـنـ الـعـربـ وـالـبـدـوـ يـمـكـنـهـ تـكـوـينـ سـلـطـةـ مـلـكـيـةـ ذاتـ طـابـعـ دـينـيـ يـحـلـ طـابـعـاـ نـبـويـاـ أـوـ قدـاسـيـاـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـخـضـعـ عـنـصـرـ الـوـحـشـيـةـ فـيـ الـبـدـوـ، وـيـجـعـلـ خـضـوعـهـمـ لـسـلـطـةـ وـاحـدةـ مـمـكـناـ بـعـدـ أـنـ كـانـ هـذـاـ خـضـوعـ مـسـتـحـيـلـاـ بـالـفـطـرـةـ، إـذـاـ كـانـ الـعـصـبـيـةـ تـنـشـيـعـ الـدـوـلـةـ، وـيـحـافظـ عـلـىـ

استمرارها[11]، فاللافت أنَّ ابن خلدون رأى أنَّ الحلَّ لتفوقة رابطة العصبية هو الدين[12]. وقد اعتمد في استنباط هذه القاعدة على استقرار الواقع السياسي في عهده، وأخيراً طُرِّر الإسراف والتَّبذير[13]. فإنَّ النَّظرة الخلدونية في أنَّ قوانين السياسية التي تحكم النَّاس تجسَّدت في[14]: وتكون مصلحته مقدمة على مصالح عامة النَّاس. فكان هذا الرَّادع قيداً شخصياً وضابطاً لكلِّ فردٍ بلا حاجة للدُّولة إلى بذل جهدٍ كبيرٍ لإخضاع الرَّعية وإخضاع قيادتهم أيضاً، وكذلك أجسادهم[15]؛ ففي النَّموذج الأخير - كما يرى ابن خلدون - إمكانية مذهلة للتحوُّل الاجتماعي. حاز الدينُ في الفكر الخلدوني القيمة الكبيرة، وهذا، وأمّا دور الدُّولة في الإدارة، فلم ينكر ابن خلدون دور الدُّولة في التَّدبیر الاقتصاديِّ رغمَ أنه استعرض مساوئ احتكار الدُّولة للسلطة والأعمال الاقتصادية المهمَّة، فلم يتصوَّر العمرانَ بلا دولة ولا النُّمو الاقتصاديَّ بدون تنظيم سلطة، فهو لا يؤمن بانسحاب الدولة من المهمَّة الإشرافية، لأنَّ ذلك يمكن أنْ يعود بالعواقب الوخيمة على الدولة والمجتمع كله[16].